ما علاقة اللغة بالفن ؟؟

المدرس المساعد : حنان عبد الهادي أمين
hananabd@uomustansiriyah.edu.iq

ترتبط كلمة الفن في أبسط مدلولاتها بتلك الفنون التي تميزها بأنها فنون تشكيلية ، أو مرئية ، على أننا إذا توخينا الدقة في التعبير لا بد أن ندخل في نطاقها فنون الأدب والموسيقى ؛ فالفن بشكل عام وبصورة مبسطة بأنه ما يجلب المتعة وعرفه كروتشه : بأنه حدساً أو مشاهدة عقلية قد أثبتت أنها أكثر النظريات السابقة وضوحاً.
وعليه الفن كلمة جميلة تحمل معاني كثير، أو هو التصُّور الجميل للأحداث التي تحصل من حولهِ، فمثلاً حين نقول عن شخص رسام بمعنى أنّهُ فنّان. فالفن عبارة عن عملِ حرّ يمتاز عن العلم بأنّه غير خاضع لأيّ قواعد منهجيّة وقوانين ومبادئ، فالفنّ يخرج عن المألوف والمعتاد بمعنى يكسر قواعد اللغة واي وسيلة أخرى يستخدمها، بمعنى هو نشاطٍ حرّ لا ينتظر من وراء إنجازه المكسب أو الربح؛ وبهذا الفن لا يكون وسيلة، بل غايةٌ في حدِّ ذاته.
أما العمل الفني : هو بمعنى من المعاني تحرير للشخصية إذ تكون مشاعرنا بصورة طبيعية مكبوتة مضغوطة إننا نتأمل عملاً فنياً فنشعر بشيء من التنفس عن المشاعر ولكن نشعر أيضاً بنوع من الاعلاء والعظمة والتسامي وهنا يكمن الاختلاف الأساسي، بين الفن والاحساس العاطفي : الاحساس العاطفي: تنفيس عن المشاعر ، ولكنه أيضاً نوع من الارتياح وارتخاء الوجدان ؛ والفن أيضا تنفيس عن المشاعر ولكنه تنفيس منشط مثير فالفن هو علم اقصاد الوجدان أنه الوجدان متخذا شكلاً جميلاً .
أما علاقة اللغة بالفن ، فمن الطبيعي أن تكون هناك علاقة بينما فالفن سواء أكان رسماً أم شعراً(أدب بشقيه) ، أم لحنا موسيقى ، نحتا ، الخ يحتاج إلى وسيلة لكي يوصل إبداعه إلى المتلقي ، وبما أن اهتمامنا بدراسة الشعر فما نختص به هنا أن العلاقة بين الفن واللغة علاقة وطيدة فلكي يوصل الشاعر أو الأديب ابداعه وما شعر بها إلى المتلقي فيحتاج إلى اللغة فاللغة هي وسيلته، وأشرنا سابقاً أن الأدب تعبير عن الحياة وسيلته اللغة وهذا أيضا ما وضحه جاكبسون بمخططه :

سياق
رسالة
(مرسل ، شاعر /كاتب) اتصال مخاطَب (متلقي)
شفرة

لكي يحقق الشاعر ابداعه لا بد من وسائل واللغة هي أحد وسائله ؛ لذا فالعلاقة بين الفن واللغة علاقة وطيدة ؛ لأن اللغة في كل الاعمال الفنية هي الظاهرة الأولى التي تستخدم الكلمة أداة للتعبير ، والانسان قد عرف العالم لأول مرة عبر اللغة فهي بمثابة المفتاح الذهبي الصغير الذي يفتح كل الأبواب ، وعن طريقها يكتشف الوجود .
وحديثنا عن الشعر والشاعر من النص الذي يقول : (الشعراء امراء الكلام .. .يحق للشاعر ما لا يحق لغيره) كيف أستثمر الشاعر القديم فكرة خرق القوانين اللغوية وتبعاتها ليخرج من خانة التقليد ؟ واين تجسد الأبداع ان كانت القصيدة القديمة ظلت محافظة على هيكليتها أو بنائها شكلاً ومضموناً؟ ومن المسؤول عن التغير والتجديد الشاعر وحده؟ أم المتلقي يسهم في ذلك؟
اقول ان الفرق أو العلاقة بين اللغة والفن ، كالفرق بين اللغة الشعرية التي ينتمي إليها الشاعر _ وهي هوية الإبداع الشعري، والعلامة الدالة على انتمائه إلى دائرة الشعر_ وبين لغة الكلام اليومي الذي يستعمله المتكلم الاعتيادي ، لان لغة الشاعر حافلة بالتصوير والخيال الواسع لذا يجوز له ما لا يجوز لغيره من اطلاق المعنى ، وتقيده ، ومن تصريف اللفظ وتعقيده ، ومده وقصره وقصر الممدود ، وهذا ما يميزه عن غيره أو ما يميز اللغة الشعرية عن لغة الخطيب أو الناثر ، فالشاعر يتمتع بحرية التجاوز لمعيار اللغة والتحرر من قيودها لتحقيق اسمى غايات الابداع.
فعمد الشاعر على خرق المعاير اللغوية وجدد فيها واحدث ابداعاً عبر استعماله للمجاز ايضاً وليس فقط الضرورات وكذلك الصور البديعية وهذا ما يجعلها لغة شعرية فالشعر قائم على الكسر للمألوف والخروق المنظم لقانون اللغة بدليل لو رجعنا إلى رأي عبد القاهر الجرجاني ، يثني على نماذج عمد فيها الشاعر الى استعمال المجاز يقول : ((انحراف اللغة وخروجها من معناها المعجمي هو الذي يجعلها لغة شعرية لان الانحراف مجاز والمجاز هو الذي يمنح الأدب التجدد والتطور والتفرد كما يمنح التشكيل اللغوي القدرة على التناسب ومشاكلة اللفظ للسياق والمعنى وهذا هو معنى قول اللغوين المعاصرين : ان تحطيم قانون اللغة المعيارية هو الجوهر الحقيقي للغة))
ويخرق الشاعر المعايير لأن لغة الشعر لغة انفعالية ، يلجأ إليها الشاعر تحت تأثير الانفعال ، وأن الالفاظ والتراكيب يعتقد الشاعر أنها أدل على المعنى من غيرها وما دامت لغة الشعر انفعالية ؛ فليس من الممكن وضع قواعد صارمة لها

لأن هذا يحد من إبداع الشاعر ؛ فالإبداع تجسد لديه من خلال الشكل وهي ما يتسمى بالضرورات الشعرية التي يلجأ إليها الشاعر من ذلك قول الشاعر :

فيا معشر الاعراب إنْ جاز شُرْبكم فلا تشربوا ما حجّ لله راكبُ

وعلق عليه (هذا لحن فيه قبيح ، فقد خفض راكب والاصل رفعه لأن فاعل حج إلا أن الشاعر خفضه تخلصاً من الاقواء)

وقد يخرج الشاعر من القياس ويخرق اللغة من أجل ان يحقق الابداع ليجذب المتلقي من ذلك

مهلاً أعاذل قد جرَّبت من خلقي أني أجود الأقوامٍ وإن ضننوا

وقول الشاعر (الحمد لله العلي الأجلْل) ففي النصين (اضننوا--- فك ادغامها ، الاجلل—فلك ادغامها والاصل الاجلَّ) خروج عن القياس .

أما المضمون فمن خلال الخروج عند الشعراء العباسيين كما سأوضحه في الفقرة التالية.

اما عن خروج الشاعر القديم ، الشاعر الجاهلي اقصد والاموي فلم يخرج من خانة التقليد واعتمد على القوالب الجاهزة ؛ نعم هو ابتكر النصوص الشعرية التي فيها الاساطير والاستعارات الكثيرة لكن الاستعارات القريبة لذهن المتلقي ، لا كما في استعارات ابو تمام الذي يباعد فيها بين المشبه والمشبه به (وأقصد به البديع الذي غالى فيه)، واصبحت ابتكاراته قوالب وهيكلية القصيدة القديمة التي سار عليها الشعراء في الزمن اللاحق لهم .

وبدأ التجديد وكسر لقوانين اللغة بشكل واضح في العصر العباسي وكان على نحو محدود _كما أظن ليس كما في العصر الحديث _ بتحطيم بعض اشكال العروض من خلال استعمال مجزوءات البحور والاكثار من النظم على البحور السريعة والخفيفة ، مع النظم في ما استجد في مجتمعاتهم من ظواهر أو مظاهر ولا سيما الاجتماعية وهذا يدخل في باب المعاني ، وبالتأكيد كلاهما يسهم في التغيير أو التجديد فتطور الحياة يفرض عليهما التناغم مع كل ما يتجسد فيها .

وقد بدأ ذلك مع بشار بن برد الذي احدث ثورة في شعره ليس فقط على التقاليد الشعرية بل حتى على التقاليد المجتمعية وقد ((نجح أن يبث في شعره كثيراً من ضروب الخلاعة والتحليل الخلقي، وحض الناس في صراحة مكشوفة على اللهو والخلاعة وعلى الاستهانة بكل القيم والتقاليد)) ؛ فضلاً عن ذلك نجح بشار في تجديد الشعر ودفعه إلى اتجاه بعيد عن التقليد بما يملكه براعة وعبقرية في القدرة على استغلال العناصر القديمة وصياغتها صياغة جديدة .

على حين لو نظرنا الى البناء الفني للقصيدة فيحتمل الخرق بالخروج عن القوالب القديمة كالمقدمة الطللية والنسيب والرحلة عبر الدخول في الغرض مباشرة وهو ما يتحقق في المقطعات ، والخرق نقصد به الانزياحات . كذلك حدث التغير والتجديد من خلال تغير المقدمة الطللية مثلا إلى مقدمة الخمرة ، وبنائها الدرامي عند ابو نواس يعد من التجديد. فأبو نؤاس فقد احدث ثورة وليس فقط تغير وتجديد في النصوص الشعرية ، وذلك عبر اتخاذه الخمريات بدلاً عن المقدمة الطللية وقد دعا إلى الاستغناء عن المقدمات الطللية والغزلية ... واحلال المقدمات الخمرية محلها ؛ وهذا الأمر كما يبدو لي راجعاً تطور الحياة الحضارية والترف وبعد الناس عن حياة البداوة والكلأ وما الى ذلك ؛ فليس هناك إذن مجال للوقوف على الاطلال ؛ فضلاً عن ذلك أحدث أبو نواس تجديد في مضامين النصوص وهي جعل القصيدة تقوم على الوحدة الموضوعية بمعنى ظهور التضمين في الشعر فلم تعد القصيدة قائمة على البيت الواحد ، وقد ادخل الحوار القصصي والمسرحي في شعره عبر حكاية الخمرة وشربها مع جماعات المجَّان ؛ فيدير الشاعر الحوار القصصي بشكل فني بارز ، وكلّ ذلك يصوره عن تجربة حقيقة عاشها بمعنى تقوم على الصدق الفني .

واستمر هذا التجديد عند الشعراء وصولاً للعصر الحديث.